كارل ماركس

إسهام في نقد فلسفة الحقوق عند هيجل

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

مقدمة

كـــارل مـــاركـــس

إسهام في نقد فلسفة الحقوق عند هيجل

مقدمة

راجع الترجمة : هيثـم منـاع

إسهام في نقد فلسفة الحقوق عند هيجل — مقدمة

فيما يتعلق بألمانيا، لقد انتهى، من حيث الاساس، نقد الدين، ونقد الدين هو الشرط الممهد لكل نقد.

لقد غدا الوجود الدنيوي للخطأ واهياً، بمجرد ما تكون ذريعة دفاعه السماوي (بالنيابة) oratio pro aris et focis مدحوضة. فالانسان الذي لا يجد في واقع السماء التخيّلي، حيث كان يبحث عن الانسان الاعلى (السوبرمان) سوى انعكاس لذاته، لن يكتفي فيما بعد الا يعثر إلّا على **ظاهر** ذاته، على اللا انسان، حيث يبحث، وعليه بالضرورة، أن يبحث، عن واقعه الحقيقي.

ان أساس النقد اللاديني: **أن الانسان هو الذي يصنع الدين**، وليس الدين هو الذي يصنع الانسان. إن الدين، في الواقع، هو وعي الذات وتقدير الذات لدى الانسان الذي لم يعثر بعد على ذاته، أو أضاعها من جديد. لكن **الانسان** ليس كائناً مجرداً جاثماً في مكان ما خارج العالم. الانسان هو **عالم الانسان**، الدولة، المجتمع. وهذه الدولة وهذا المجتمع ينتجان الدين، **الوعي المقلوب للعالم**، لأنهما بالذات **عالم مقلوب**. الدين هو النظرية العامة لهذا العالم، خلاصته الموسوعية، منطقه في صيغته الشعبية. **مناط شرفه** Point-d'honneur الروحي، حماسته، جزاؤه الاخلاقي، تكملته المهيبة، أساس عزائه وتبريره الشامل. انه **التحقيق الخيالي** لكينونة الانسان لأن ليس لكينونة الانسان واقعاً حقيقياً. اذن، فالنضال ضد الدين هو بصورة غير مباشرة، نضال ضد **ذاك العالم** الذي يشكّل الدين **عبيره** الروحي.

ان الشقاء **الديني** هو **تعبير** عن الشقاء الواقعي، وهو من من جهة أخرى، احتجاج عليه. الدين زفير المخلوق المقموع، قلب عالم لا قلب له، كما انه روح شروط اجتماعية لا روح فيها. إنه **افيون** الشعوب.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

إن تجاوز Aufhebung الدين، بصفته سعادة وهمية للشعوب، يعني المطالبة بسعادتها الفعلية، ومطالبة الشعوب بالتخلي عن الاوهام حول وضعها، يعني مطالبتها بالتخلي عن وضع في حاجة الى أوهام. فنقد الدين هو، إذن نقد (مصدر) Keim وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالة له.

لقد نزع النقد عن الأصفاد الزهور الوهمية التي كانت تغطيها، لا لكي يحمل الانسان أصفادا غير مزخرفة، مؤنسة، بل ليتخلى عن الأصفاد ويقطف الزهرة الحية. ان نقد الدين يخلص أوهام الانسان، حتى يفكر، ينشط، يصنع واقعه بصفته إنسانا تخلص من الأوهام وبلغ سن الرشد، لكي يدور حول نفسه، أي حول شمسه الحقيقية. فالدين ليس سوى الشمس الوهمية التي تدور حول الانسان ما دام الانسان لا يدور حول نفسه.

ان من مهمة التاريخ، إذن، بعد زوال عالم ما وراء الحقيقة، ان يقيم حقيقة هذا العالم. المهمة المباشرة للفلسفة، التي تخدم التاريخ، بعد ان يجري فضح الشكل المقدس للاستلاب الذاتي للانسان، هي نزع القناع عن الاستلاب الذاتي في أشكاله غير المقدسة. وبذلك يتحول نقد السماء الى نقد الأرض، نقد الدين إلى نقد الحقوق ونقد اللاهوت الى نقد السياسة.

ان ما نبسطه هنا[1]، وهو اسهام في هذا العمل، يستهدف بادىء بدء بالنقد لا الاصل، بل نسخة، هي الفلسفة الألمانية للدولة والحقوق، وذلك لسبب واحد، هو انه (الاسهام) يتعلق بألمانيا.

لو أردنا الانطلاق من الامر الواقع Status quo الألماني ذاته، بل لو فعلنا ذلك بالطريقة الوحيدة الملائمة، نعني نفيه، فالنتيجة ستظل (مفارقة زمنية) anachronismus. حتى نفي الحالة السياسية الراهنة ورفضها هو نفسه غرض مغبّر مهجور في رفّ الشعوب الحديثة التاريخ. فإن قمت بنفي الشعور المستعارة المطلية بالمساحيق، تظل أمامي الشعور المستعارة غير المطلية. وإن نفيت وضع ألمانيا عام ١٨٤٣، وجدت نفسي حسب التقويم الفرنسي، في سنة ١٧٨٩ بالكاد، بل وجدت نفسي ابعد من ذلك عن مركز الاحداث الراهنة.

نعم، إن التاريخ الألماني يتبجح بعمل لم يحتذ مثاله أي شعب في ميدان التاريخ، ولن يحتذي مثاله اي شعب آخر. لقد قاسمنا الشعوب الحديثة

ارتداداتها دون ان نقاسمها ثوراتها. لقد عرفنا الارتدادات، أولاً، لأن شعوباً أخرى تجرأت على القيام بثورة وثانياً، لأن شعوباً أخرى كابدت ثورة مضادة. عرفنا ذلك في المرة الاولى لأن أسيادنا تملكهم الخوف، والمرة الثانية لأن سادتنا لم يحسوا بالخوف. ونحن — تحت رئاسة رعاتنا — لم نرافق الحرية إلا في مناسبة واحدة: يوم دفنها.

(ثمة) مدرسة تضفي الشرعية على حقارات اليوم باسم حقارات الأمس، مدرسة تصم بالتمرد أي صرخة يطلقها القن ضد السوط ما دام السوط سوطاً، مثقلاً بالسنين، سوطاً عريقاً، سوطاً تاريخياً: مدرسة لا يكشف لها التاريخ، شأن إله اسرائيل لخادمه موسى [٢]، إلا بعدياً a posteriori (عما سلف).. انها المدرسة التاريخية للحقوق[٣]. لقد كانت لتخترع التاريخ الألماني لو لم تكن هي نفسها من اختراع التاريخ الألماني. شايلوك[٤]، لكن شايلوك الأجير، الذي يقسم (الأيامين) في سبيل كل رطل لحم ينتزعه من قلب الشعب، يمينه هو، يمينه التاريخي، ويمينه المسيحي ـ الجرماني.

وثمة، على عكس ذلك، متحمسون (عاليو الهِمَم) Gutmütige (ألمان شوفينيون) Deutschtümler بالسليقة وليبراليون بالفكر، ينشدون تاريخ حريتنا فيما وراء تاريخنا، في الغابات التيوتونية[٥] البدائية. لكن! ما الذي يميّز تاريخ حريتنا عن تاريخ حرية الخنزير البري إذا كنا لا نجدها إلا في الغابات؟ وفضلاً عن ذلك، من المعروف جيداً ان الصدى يردد الصيحات التي تتعالى في الغابة. إذن، سلام على الغابات التيوتونية البدائية.

لكن، حرب على الأوضاع في ألمانيا، دون شك! هذه الأوضاع دون مستوى التاريخ، دون مستوى أي نقد، ولكنها تبقى موضوع نقد، كالمجرم الذي هو دون مستوى الانسانية، ولكنه مع ذلك يبقى موضوع عناية الجلاد. في نضاله ضد هذه الاوضاع، ليس النقد هوى في الرأس، بل هو رأس الهوى. ليس مبضعاً للتشريح، بل سلاح. فموضوعه هو عدوه، وهو لا يبتغي دحض هذا العدو بل إبادته. إذ ان روح هذه الاوضاع قد سبق وان دحض. وهي في ذاتها لم تعد جديرة بالتفكير، إنما هي وجودات (جمع وجود) قائمة الذات جديرة بالاحتقار بقدر ما هي حقيرة. فالنقد في ذاته، لا يحتاج أن يتفهّم هذا الموضوع، لأن علاقاته به قد حسمت. لم يعد النقد غاية في

ذاته، بل غدا **وسيلة** فقط، القوة الاساسية التي تحركه هي **السخط**، **والشجب** مهمته الاساسية.

فالمطلوب، وصف ضغط مكبوت متبادل بين كل الدوائر الاجتماعية، استياء عام سيء المزاج، ضيق النظر المعلوم والمجهول بآن، كل ذلك يقع في إطار سستام (منظومة) حكم هو الحقارة **وقد أصبحت الحكومة** لأنها تعيش من المحافظة على كل الحقارات.

يا له من مشهد ! إن التقسيم اللامتناهي للمجتمع إلى مجموعة من الأعراق Rassen التي يعارض بعضها بعضاً بكراهياتها السخيفة، بضميرها المؤنب، بضحالتها الفظة، والتي بسبب الموقف الملبّس والمشبوه لكل عرق إزاء الآخر، يعاملها أسيادها، كلها وبلا تمييز. على انها **كائنات مسموح بوجودها**، ولو انهم يلبسون هذه المعاملة أشكالاً مختلفة. حتى واقع كون تلك العناصر **مقهورة، محكومة، مقتناة**، فانها مجبرة على اعتبار ذلك واعلانه **هبة من السماء** ! وفي الجهة الاخرى نجد هؤلاء الحكام أنفسهم، الذين تتناسب عظمتهم عكساً مع عددهم !

ان النقد الذي يستهدف مثل هذه الاوضاع هو نقد في **خضم المعمعة**، وفي المعمعة ليس المطلوب معرفة ما إذا كان الخصم نبيلاً، أو كان نداً لك من حيث المنزلة، أو كان **ذا أهمية**، وإنما المطلوب هو إصابته. المطلوب ألا يمنح الألمان لحظة واحدة من الوهم والاستسلام، يجب جعل الاضطهاد الواقع أشد وطأة، بأن نضيف إليه وعي الاضطهاد. يجب ان نجعل العار أشد معرّة بنشره على الملأ، يجب ان نصوّر كل قطاع من المجتمع الألماني على انه **عورة** هذا المجتمع، يجب إرغام هذه الظروف المتحجرة على ان ترقص، بأن نغني لحنها الخاص. يجب ان نعلم الشعب **الخوف** من نفسه كيما نعطيه الشجاعة. وبذلك نشبع حاجة ضرورية ملحة للشعب الألماني، وحاجات الشعوب هي في حد ذاتها، علة اشباعها الاخيرة.

ليس النضال ضد المحتوى المحدود للأمر الواقع Status quo الألماني عديم الفائدة بالنسبة للشعوب الحديثة، لأن **الأمر الواقع** Status quo الالماني هو **التحقيق المعلن للنظام القديم** ancien régime ، **والنظام القديم هو عيب الدولة الحديثة الخفي**. ان النضال ضد الوضع السياسي الحاضر في ألمانيا،

هو الصراع ضد ماضي الشعوب التي لا تفتأ ذكريات هذا الماضي تقضّ مضاجعها. وما العبر المفيدة لهذه الشعوب ان ترى ذلك النظام القديم الذي شهدته بلدانها مأساة، يعود، ليمثّل دوره الملهاتي في ألمانيا. لقد كان تأريخه مأساوياً طالما كان السلطة الأسبق Präexistierende لهذا العالم، حين كانت الحرية خيالاً شخصياً. باختصار: طالما كان هذا النظام مؤمناً، ومرغماً على الايمان (بحيثياته)، طالما كان **النظام القديم** بصفته نظام العالم الموجود، يناضل ضد عالم لم يكن إلا في صيرورة، فانه كان يمثل خطأً تاريخيا كونياً وليس خطأً شخصياً. لذا فإن سقوطه كان مأساوياً.

بالمقابل، فالنظام الالماني الحالي، (مفارقة زمنية)، متناقض تناقضاً صارخاً مع كل الدنيا بأسرها، يتصور فحسب انه يؤمن بنفسه، ويطالب العالم بأن يشاطره هذا الوهم. لو كان يؤمن **بكينونته** الخاصة، أكان يحاول إخفاءها وراء مظهر كائن غريب، أكان يبحث عن خلاصه في النفاق والسفسطة ؟ ان **النظام القديم** الحديث لم يعد إلا المهرج لنظام عالمي مات **أبطاله الحقيقيون**. إن التاريخ ينجز عمله حتى النهاية، فهو يمر بمراحل عديدة قبل ان يدفن شكلاً بالياً. إن المرحلة النهائية لشكل تخطاه التاريخ العالمي هي ملهاته. آلهة اليونان الذين أصيبوا بجراح مميتة بصورة مأساوية في مسرحية اسخليوس «بروميثوس مقيداً» عادوا هذه المرة فماتوا موتاً هزلياً في محاورات «لوقيانوس». لماذا يأخذ التاريخ هذا المسار؟ حتى تنفصل الانسانية سعيدة عن ماضيها. ونحن نطالب بهذا المصير التاريخي السعيد لقوى المانيا السياسية.

ولكن، ما ان يوضع الواقع السياسي ـ الاجتماعي **الحديث** موضع النقد، ما ان يرتفع النقد، بالتالي، إلى معضلات انسانية حقة، حتى يجد نفسه خارج الامر الواقع Status quo الألماني، وإلا سيكون عليه البحث عن موضوعه **دون** مستوى موضوعه بالذات. مثلاً: إن العلاقات بين الصناعة، وبشكل عام عالم الثروة، وبين السياسة، هي معضلة اساسية من معضلات العصر الحديث. في اي شكل اخذت هذه المعضلة تشغل بال الالمان؟ في شكل تعرفه حماية جمركية، سستام حظر، اقتصاد قومي Nationalökonomie [٦]. أهملت (النزعة الالمانية) الانسان لتعنى بالمادة، وهكذا، استفاق أصحابنا الالمان فرسان القطن وأبطال الحديد ذات صباح وقد تحوّلوا إلى

وطنيين. إذن لقد بدأ، في المانيا، الاعتراف بسيادة الاحتكار داخل الحدود، باعطاء الضمانة لسيادته من دونها (خارج الحدود) وها نحن أولاء في المانيا في طريقنا لأن نبدأ من النقطة التي شرعت فرنسا وانجلترا بالانتهاء منها. ان النظم الهرم المنخور الذي يتمرد عليه نظرياً هذان البَلَدان، والذي لم يعودا يتحملانه إلا كما يتحمل الشخص قيوداً، هذا النظم يجري الترحيب به في المانيا بوصفه الفجر الوضاء لمستقبل جميل يتجاسر بالكاد على الانتقال من النظرية (الماكرة) Listigen [٧] إلى ممارسة لا تعرف الرحمة. وفي حين ان القضية المطروحة في فرنسا وبريطانيا هي: اقتصاد سياسي ام سيطرة المجتمع على الثروة، نجدها في المانيا: اقتصاد قومي ام هيمنة الملكية الخاصة على القومية. اذن، ما هو مطلوب في فرنسا وانكلترا هو إلغاء الاحتكار الذي وصل الى مداه. بينما المطلوب في المانيا هو الوصول الى مدى الاحتكار. هناك المطلوب هو وجود الحل، هنا، مازلنا في بداية الصدام. هذا مثال كافٍ على الصيغة الالمانية للمشكلات الحديثة؛ يبيّن هذا المثال كيف ان تاريخنا، الشبيه بمجند جديد غشيم، لم تكن مهمته سوى تكرار القيام بعد الآخرين بتمارين تاريخية مطروقة.

لو لم يكن النمو الالماني في مجموعه يتقدم مستوى النمو السياسي في المانيا لما استطاع الالماني ان يهتم بالمشكلات الراهنة، على احسن تقدير، أكثر مما يهتم بها الروسي. وإذا حدث ان كفّ فرد ما عن كونه سجين حدود امته، فإن امته لن تكون حرة لمجرد ان فرداً منها قد تحرّر. فالسيتيون لم يخطوا نحو الثقافة اليونانية قيد ذراع لمجرد ان فيلسوفاً سيتياً ظهر بين فلاسفة اليونان. من حسن الحظ، اننا نحن الالمان، لسنا سيتيين.

كما عاشت شعوب العصور القديمة ما قبل تاريخها في الخيال، في الميثولوجيا، عشنا نحن الالمان ما بعد تاريخنا في الفكر، في الفلسفة. فنحن المعاصرون فلسفياً للعصر الحاضر دون ان نكون معاصريه تاريخياً. إن الفلسفة الالمانية هي الامتداد للتاريخ الالماني، فلو انتقدنا الاعمال اللاحقة لتاريخنا الامثل، اي الفلسفة، بدلاً من الآثار الناقصة لتاريخنا الواقعي، فإن نقدنا يصيب قلب المسائل التي يقول فيها الراهن: هذا هو السؤال! That is the q uestion ان ما يشكل عند الشعوب المتقدمة اختلافاً عملياً مع

الاوضاع (الاجتماعية) الحديثة، يشكل في المانيا، حيث هذه الاوضاع لم توجد بعد **اختلافاً نقدياً** للانعكاس الفلسفي لهذه الاوضاع.

ان الفلسفة الالمانية للحقوق والدولة هي التاريخ الالماني الوحيد الذي هو في مستوى الراهن الرسمي الحديث. الشعب الالماني مضطر إذن، ان يربط تاريخه الوهمي بوضعه الاجتماعي مخضعاً للنقد، ليس فحسب الاوضاع الراهنة، بل كذلك استمراريتها المجردة. ان مستقبله لا يمكن حصره لا في النفي المباشر، ولا في التحقيق المباشر لأوضاع دولته وحقوقه واقعاً ومثالاً، ذلك ان النفي المباشر لوضعه الواقعي يتملكه في وضعه المثالي. من هنا، فإن الحزب السياسي العملي بألمانيا على حق عندما يطالب **بنفي الفلسفة**. ان خطأه في هذا الطلب، وإنما في وقوفه عند هذا الطلب الذي لم يحققه ولا يستطيع ان يحققه جدياً. إن الحزب يعتقد انه يستطيع نفي الفلسفة لمجرد ان يدير لها ظهره ويغرب عنها وجهه مغمغماً ضدها بعض الجمل الغاضبة الساذجة. ان ضيق افقه هو الذي يجعله لا يعتبر الفلسفة من ميدان الواقع الالماني، او ان يذهب إلى افتراضها دون الممارسة الألمانية والنظريات التي تستخدمها. تريدوننا ان ننطلق من بذور الواقع الحية، ولكنكم تنسون ان بذرة الشعب الالماني الحية لم تنم، إلى حد الآن، إلا تحت جمجمته. وبكلمة، **انكم لا تستطيعون إلغاء الفلسفة إلا بتحقيقها**.

نفس الخطأ، ولكن بعوامل معكوسةهذه المرة، ارتكبه الحزب السياسي **النظري** الذي انطلق من الفلسفة. في الصراع الحالي، لم ير هذا الحزب سوى صراع **الفلسفة النقدي** ضد العالم الالماني، ولم ينتبه إلى ان الفلسفة السالفة تنتمي هي الاخرى إلى هذا العالم، وهي تشكل تكملة له، وإن لم تكن غير تكملته المثالية. هذا الحزب النقدي تجاه خصمه، يبقى لا نقدياً تجاه ذاته، من حيث انه ينطلق من فرضيات **الفلسفة**. ولا يتخطى نتائجها، أو انه يقدم كمتطلبات للفلسفة ونتائج مباشرة لها، متطلبات ونتائج حالية مأخوذة من خارجها بينما هذه الاخيرة — إذا سلمنا بصحتها — لا يمكن الوصول إليها إلا عبر **نفي** الفلسفة كفلسفة. نرجىء، إلى ما بعد، الوصف الوافي لهذا الحزب، ويمكن ايجاز خطأه الاساسي بما يلي: لقد ظن بالامكان تحقيق الفلسفة دون تجاوزها.

ان نقد الفلسفة الالمانية للدولة والحقوق التي اعطاها هيجل الصورة الاكثر منطقية وغناً وإطلاقية، هو في نفس الوقت التحليل النقدي للدولة الحديثة وللواقع المحايث لها، والنفي الحاسم لكل الاشكال التي عرفها **الوعي السياسي والحقوقي الالماني** حتى الآن، هذا الوعي الذي تشكل **الفلسفة التأملية Spekulative للحقوق** تعبيره الاسمى والاشمل والمرتفع إلى **مستوى** العلم. وإذا كانت المانيا هي البلد الوحيد الذي امكن فيه نشوء الفلسفة التأملية للحقوق، هذه النظرية المجردة والمتعالية في تصور الدولة الحديثة، حيث الواقع يبقى في الماوراء — وإن كان ليس إلا ماوراء نهر الراين — والعكس بالعكس، لم يكن التصور الالماني للدولة الحديثة والمجرد للانسان الحقيقي ممكناً، إلا لأن الدولة الحديثة، من حيث هي دولة، هي نفسها تجريد **للانسان الحقيقي**، وأنها لا ترضي كل الانسان إلا بطريقة خيالية. **لقد فكّر الالمان في السياسة ما فعلته عملاً الشعوب الاخرى**. كانت المانيا **ضميرهم النظري** . حيث لازم تجريد وتضخيم الفكر في المانيا دائماً ضيق الافق وضعة الواقع. وإذا كان الأمر الواقع Status quo لماهية الدولة الالمانية يعبر عن تتمة النظام القديم، عن غرس الشوكة في جسم الدولة الحديثة، فان الامر الواقع لعلم الدولة الالماني، يعبّر عن **عدم انجاز الدولة الحديثة**، عن الطابع العفن لجسم الدولة نفسه.

لايضيع نقد الفلسفة التأملية للحقوق في ذاته، لمجرد اعتباره خصماً معلناً لنمط الوعي السياسي الالماني، وإنما في مهمات ليس من وسيلة لحلها سوى الممارسة.

السؤال المطروح إذن: هل تستطيع المانيا الوصول الى ممارسة في مستوى المبادىء، أي، ان تبلغ ثورة لا ترتقي بها وحسب إلى **المستوى الرسمي** للشعوب الحديثة، بل إلى **الصعيد الانساني** الذي سيكون المستقبل القريب لهذه الشعوب؟

لاشك ان سلاح النقد لا يستطيع ان يحل محل نقد السلاح، والقوة المادية لا تصرعها إلا القوة المادية؛ ولكن النظرية تغدو هي ايضاً قوة مادية منذ تتغلغل في الجماهير. والنظرية قادرة على استحواذ الجماهير منذ تقيم براهينها على مثال الانسان ad hominem ، وتقيم براهينها هذه عندما تصبح راديكالية .

(جذرية). ان تكون جذرياً هو ان تأخذ الامور من جذورها، ولكن الجذر بالنسبة للانسان، هو الانسان نفسه. وبرهان جذرية النظرية الالمانية القاطع، وبالتالي برهان طاقتها العملية، هو انها تنطلق من الالغاء الحاسم والايجابي للدين. ان نقد الدين ينتهي إلى هذا الدرس: إن الانسان هو **الكائن الاسمى بالنسبة للانسان**، وبالتالي الى **الامر القطعي** بقلب كل الاوضاع الاجتماعية التي تجعل من الانسان كائناً ذليلاً، مستعبداً، مهملاً ومحتقراً، هذه العلاقات التي لا يمكن وصفها بأحسن من هفة فرنسي، بمناسبة مشروع الضريبة على الكلاب: «يا للكلاب المسكينة، يريدون معاملتكم مثلما يعامل البشر!».

حتى من وجهة نظر تاريخية، يمثّل الانعتاق النظري بالنسبة لألمانيا مدلولاً عملياً خاصاً. في الواقع، الماضي الثوري لألمانيا هو ماضٍ نظري، إنه الاصلاح. في تلك الحقبة، بدأت الثورة في دماغ راهب، اليوم تبدأ في دماغ الفيلسوف. لا شك ان لوثر قد تغلب على العبودية، معوضاً لها بعبودية التقوى، لقد حطّم الايمان بالسلطة باعادة ترميم سلطة الايمان. لقد حوّل القساوسة إلى علمانيين بمسخه العلمانيين في قساوسة. لقد حرّر الانسان من التدين الخارجي لأنه جعل التدين جوهر الانسان نفسه. اسقط اغلال الجسد ليحمل القلب اعباء الأغلال.

لكن، إذا لم تكن البروتستانية الحل الحقيقي، فلقد كانت الوضع الحقيقي لطرح المشكلة. لم تعد المسألة، مذاك، مسألة صراع العلماني ضد القسيس، أي كائن خارج نفسه، بل هي صراعه ضد قسيسه الكائن في اعماق نفسه، ضد طبيعته الكهنوتية. وإذا كان المسخ البروتستانتي للعلمانيين الألمان إلى قساوسة قد أعتق البابوات العلمانين، لأمراء مع كهنتهم، اصحاب الامتيازات و(السوقة) Philistern. فإن المسخ الفلسفي للألمان — القساوسة إلى بشر سيعتق الشعب، ولكن، كما ان الانعتاق لا يتوقف عند الامراء، كذلك فإن دنيوّة Säkularisation الاموال والممتلكات لن تتوقف عند نهب **الكنائس**، الذي مارسته أول ما مارسته بروسيا المنافقة. في ذلك العهد أخفقت حرب الفلاحين — الحدث الاكثر جذرية في التاريخ الالماني — في مواجهة اللاهوت. اما اليوم، واللاهوت ذاته يغرق، فان الحدث الأقل حرية

في التاريخ الألماني، الأمر الواقع سيتحطم على (صخرة) الفلسفة. كانت ألمانيا الرسمية، عشية الاصلاح، أطوع خادم لروما، اما عشية ثورتها فهي الخادم الاكثر طواعية لمن هم أقل من روما بكثير. أي لبروسيا والنمسا، (لكبار الملاك) KrautjunKern والسوقة. بيد انه يبدو ان ثورة جذرية ألمانية تصطدم بعقبة رئيسية.

في الواقع، تحتاج الثورات إلى عناصر منفعلة passiven لقاعدة مادية. والنظرية لا تتحقق هيهات في شعب ما إلا بمقدار ما تكون تحقيقاً لحاجاته. هل الهوة القائمة بين مطاليب الفكر الالماني وأجوبة الواقع الالماني، تتناسب مع نفس الهوة القائمة بين المجتمع البرجوازي والدولة، وبين هذا المجتمع ونفسه؟ وهل ستصبح الحاجات النظرية مباشرة احتياجات عملية؟ لا يكفي ان يبحث الفكر عن التحقق في الواقع، بل على الواقع ايضاً ان يبحث عن الفكر. غير ان المانيا لم تتسلق المراحل الوسيطة للتحرر السياسي في نفس الوقت الذي تسلقها فيها غيرها من الشعوب الحديثة، وحتى المراحل التي رست لها نظرياً لم تبلغهـا بعـد عمليـاً. وأن لها ان تتخـطى بقفـزة المـوت Salto mortale، لا حواجزها الخاصة فحسب، بل، وفي الوقت نفسه حواجز الشعوب الحديثة، أي حواجز عليها في الواقع تتبع اختبارها واشادتها كانعتاق من حواجزها الحقيقة؟ ان ثورة جذرية لا يمكن ان تكون إلا ثورة حاجات جذرية، حيث يبدو تحديداً ان مقدماتها مثل ارضيتها مازالت غائبة.

ولكن، إن لم تصاحب ألمانيا تطور الشعوب الحديثة إلا بنشاط فكرها المجرد، دون أن تساهم فعلياً في نضالات هذا التطور الحقيقية، فإنها من ناحية أخرى، شاطرت هذه الشعوب آلام هذا التطور دون ان تشاطرها ملذاتها ورضاها الجزئي. يقابل الألم المجرد من ناحية النشاط المجرد من ناحية أخرى، وهكذا ستجد ألمانيا نفسها، ذات يوم، في مستوى الانحطاط الاوروبي قبل ان تكون قد عرفت يوماً مستوى الانعتاق الاوروبي، مثلها في ذلك مثل البدّي (الفتشي Fetischdiener) الذي تنهشه امراض المسيحية.

إذا اعتبرنا، بادىء الامر، الحكومات الالمانية، وجدنا ان الظروف الحالية، وضع المانيا، حالة ثقافتها، وأخيراً غريزة سعيدة تدفعها جميعاً إلى مزج العيوب المتمدنة لعالم الدولة الحديثة التي لا نمتلك شيئاً من مزاياها

بالعيوب البربرية للنظام القديم، التي تنعم بها بشكل كامل، بحيث ينبغي لألمانيا ان تساهم أكثر فأكثر، إن لم يكن في العقل، فعلى الاقل في لاعقل أشكال الدولة التي تتخطى الامر الواقع. هل يوجد مثلاً، بلد في العالم يشارك بهذا القدر من السذاجة في جميع أوهام نظام الدولة الدستورية، دون ان يكون له نصيب في وقائعه، مثل المانيا الدستورية المزعومة ؟ أو هلاّ تكن بالضرورة حكومة المانيا صاحبة فكرة الجمع بين جهنم الرقابة وجهنم قوانين ايلول (سبتمبر)[٨] الفرنسية التي تفترض وجود حرية الصحافة؟ وكما اننا نجد في مقبرة العظماء الرومانية (البانتيون) آلهة كل الامم، فاننا نجد في الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة كل خطايا أشكال الدولة مجتمعة. لقد بلغت هذه الانتقائية مستوى ليس له مثيل: والشراهة السياسية — الجمالية لملك المانيا [٩] تمثل الضمانة لذلك، يفكر هذا العاهل في ان يلعب جميع ادوار المَلَكية اقطاعية كانت او بيروقراطية، مطلقة أو دستورية، أوتوقراطية؛ إن لم يكن بوساطة الشعب، فمن خلال شخصه الخاص، وإن لم يكن من أجل الشعب، فمن أجل نفسه. ان المانيا بوصفها تشخيص الرذيلة المطلقة للواقع السياسي، لن تستطيع الاحاطة بالحواجز الالمانية المتميزة دون الاطاحة بالحاجز العام للواقع السياسي.

ليست الثورة الجذرية، الانعتاق العام والانساني حلم المانيا الطوباوي، وإنما الثورة الجزئية، الثورة السياسية وحسب، الثورة التي تبقى دعائم البيت قائمة. علام تقوم ثورة جزئية، ثورة سياسية لا غير؟ على ان جزء من المجتمع المدني[١٠] سيتحرر ويتوصل إلى الهيمنة العامة، على ان طبقة معينة تشرّع انطلاقاً من وضعيتها الخاصة الانعتاق العام للمجتمع، لكن هذه الطبقة لا تحرر المجتمع كله إلا بافتراض ان يكون المجتمع كله في وضعية هذه الطبقة، كأن يمتلك مثلاً المال والثقافة أو يستطيع الحصول عليهما كما يشاء.

و لا تستطيع أي طبقة من المجتمع المدني القيام بهذا الدور، دون ان تثير عنصر حماس داخل صفوفها وفي صفوف الجماهير، لحظة، حيث تتآخى وتلتبس فيها مع المجتمع كله، تتطابق معه فيشعر ويعترف بأنها ممثله العام، لحظة، تكون مطالب الطبقة وحقوقها هي نفس مطالب المجتمع وحقوقه، وتصبح حقاً الرأس الاجتماعي والقلب الاجتماعي. لا تستطيع طبقة محددة

ان تطالب بالهيمنة العامة إلا باسم حقوق المجتمع العامة. ان طاقة هذه الطبقة الثورية ووعيها لقوتها الخاصة لا يكفيان وحدهما لاحتلال هذا الموقع الانعتاقي وضمان الاستغلال السياسي لجميع أوساط المجتمع لصالحها الخاص. ولكي تتطابق ثورة شعب ما وانعتاق طبقة محددة من طبقات المجتمع المدني، لكي تمثل طبقة إجتماعية ما وضع المجتمع كله، ينبغي ان تصبح طبقة إجتماعية محددة تشخيصاً لأكثر جرائم المجتمع بشاعة، وهكذا فان التحرر من هذه الفئة، يبدو كانعتاق ذاتي عام. ولكي تكون (طبقة) ما طبقة التحرر (بامتياز) Par excellence ، ينبغي على العكس، ان تكون طبقة اخرى بكل وضوح طبقة الاستعباد، ان الاهمية السلبية الشاملة للنبلاء ورجال الدين في فرنسا، ترتب عليها ضرورة، الاهمية الايجابية الشاملة للبرجوازية اقرب الطبقات إليهم وأشدها معارضة لهم.

لكن ما يعوز أي طبقة خاصة في المانيا، ليس فقط المنطقية والصراحة والشجاعة والصلافة التي قد تجعل منها الممثل السلبي للمجتمع، بل كذلك وبنفس القدر، يعوز كل طبقة في ألمانيا، رحابة الروح التي تمكنها، ولو للحظة، من تقمّص روح الشعب، وتلك العبقرية التي تمجّد القوة المادية وتحولها إلى سلطان سياسي، تعوزها تلك الجرأة الثورية التي تصرخ في وجه عدوها بكلمة التحدي: **أنا لست شيئاً وأرغب ان أكون كل شيء** [11]. إن العنصر الاساسي للأخلاق وللنزاهة الألمانية، لا بالنسبة للأفراد، بل للطبقات ايضاً، هو هذه **الأنانية المتواضعة** التي تشهر ضيق افقها وتسمح بأن يشهر عليها. إن العلاقة بين مختلف فئات المجتمع الألماني ليست إذن دراماتية بل ملحمية، وتشرع كل واحدة منها في الشعور بذاتها وتنتصب بجوار الفئات الاخرى، بمطالبها الخاصة لا حالما تضطهد، بل حالما تُخلَقُ الظروف دون أدنى تدخل منها، فئة إجتماعية دنيا تستطيع ان تمارس عليها اضطهادها. وحتى الاعتزاز بالذات للطبقة الوسطى الألمانية، فإنه يقوم فقط على وعي كونها الممثل العام للضحالة السوقية التي تميز بقية الطبقات. لم يكن الملوك الالمان إذن وحدهم الذين كان ارتقاؤهم العرش في غير محله mal-à-propos. بل ان كل فئات المجتمع البرجوازي، تعيش هزيمتها قبل ان تحتفل بانتصارها، وتقيم حاجزها الخاص قبل ان تتخطى الحاجز القائم امامها،

وتشهر ضيق افق (كيانها) قبل ان تشهر شجاعتها، بحيث تضيّع دائماً كل فرصة يمكنها ان تلعب فيها دوراً كبيراً قبل حلولها، بحيث ان كل طبقة حالما تشرع في الصراع ضد الطبقة التي فوقها، تكون قد تورطت في الصراع ضد الطبقة التي هي تحتها. فالامراء في صراع ضد المَلَكية، والبيروقراطي في صراع ضد النبيل، والبرجوازي في صراع ضدهم جميعاً. بينما يجد البروليتاري نفسه قد بدأ الصراع ضد البرجوازي. وما ان تجرؤ البرجوازية، من وجهة نظرها، على تصور فكرة الانعتاق، حتى يكون تطور الشروط الاجتماعية وتقدم النظرية السياسية قد أبرزا الطابع العتيق، او على الاقل الاشكالي Problematisch لوجهة نظرها هذه.

في فرنسا يكفي ان يكون المرء شيئاً ما حتى يرغب في ان يكون كل شيء. في ألمانيا لا يمكن للمرء ان يكون شيئاً إن لم يتخلّ عن كل شيء. في فرنسا، الانعتاق الجزئي هو أساس الانعتاق الشامل. في ألمانيا الانعتاق الشامل هو شرط الوجوب conditio sine qua non لكل انعتاق جزئي. في فرنسا تنشأ الحرية الشاملة من واقع الانعتاق الجزئي، وأما في ألمانيا فإنها تنشأ من استحالته. في فرنسا كل طبقة من طبقات الشعب مثالية سياسية، تشعر بذاتها قبل كل شيء، لا كطبقة خاصة بل كممثلة للحاجات الاجتماعية عامة. وهكذا فإن دور المعتقين تقوم به على التوالي، وعبر حركة دراماتيكية مختلف طبقات الشعب الفرنسي، حتى يصل أخيراً إلى الطبقة التي تحقق الحرية الاجتماعية. لا بافتراض ان شروطاً خارجة عن الانسان قد لبّيت، وهي في الواقع وليدة المجتمع الانساني، بل بتنظيم كل شروط الوجود الانساني انطلاقاً من الحرية الاجتماعية. وعلى العكس في ألمانيا، حيث الحياة العملية تفتقر إلى الروح بقدر ما تفتقر الحياة الروحية الى الممارسة، لا تشعر أي طبقة من طبقات المجتمع المدني، لا بالحاجة إلى، او بالقدرة على الانعتاق الشامل، قبل ان يضطرها إلى ذلك وضعها الآني، أو الضرورة المادية، أو أغلالها الخاصة.

أين تكمن إذن امكانية الانعتاق الايجابي الألماني العملية؟

جـواب: إنها تكمن في تكوّن طبقة ذات أغلال راديكالية (جذرية)، في طبقة تعيش في المجتمع المدني وليست من المجتمع المدني، في وضع إجتماعي

يُبشر بانحلال جميع الاوضاع الاجتماعية، في فئة، تمتلك بفضل آلامها الشاملة، طابعاً شاملاً، ولا تطالب بحق معينّ لأنها لا تشتكي من ظلم معينّ، بل من الظلم ذاته، ولا تفتخر بعنوان تاريخي بل في تعارض كلّي مع الشروط الأولية لوجود الدولة الالمانية، أخيراً، في فئة لا تستطيع ان تنعتق دون ان تعتق نفسها من جميع فئات المجتمع الاخرى، ودون ان تعتق بالتالي كل فئات المجتمع الاخرى، التي هي بكلمة مختصرة الضياع الكامل للانسان، التي لا تستطيع، وفقاً لهذا، استرداد ذاتها دون الاسترداد الكلي للانسان. هذا الانحلال للمجتمع المتحقق في وضع (طبقي): هو البروليتاريا.

بدأت البروليتاريا بالظهور في المانيا نتيجة نهوض الحركة الصناعية، لأن ما يشكل البروليتاريا ليس الفقر الموجود طبيعياً، إنما الفقر المنتج صناعياً، ليست الكتل البشرية المسحوقة ميكانيكياً تحت وطأة المجتمع، وإنما الكتل البشرية الناتجة عن انحلاله العنيف، وخاصة عن انحلال الفئات الوسطى، رغم ان، وهذا امر طبيعي، فقراء الفقر الطبيعي ورقيق المجتمع الجرماني المسيحي ينضمون تدريجياً إلى صفوف البروليتاريا.

ان البروليتاريا باعلانها حل (نظام) العالم القائم، إنما تفصح عن سر وجودها الخاص، لأنها هي الانحلال الفعلي له. وعندما تطالب البروليتاريا بالغاء الملكية الخاصة، فانها تقيم كمبدأ للمجتمع ما قد أقامه المجتمع كمبدأ لها، ما قد شخصته، دون ان يكون لها في ذلك ضلع، باعتبارها نتيجة سلبية للمجتمع. وهكذا تجد البروليتاريا نفسها بالنسبة للعالم المقبل في نفس الوضع الحقوقي لملك المانيا بالنسبة للعالم المدبر عندما يقول ان الشعب شعبه كما يقول عن الحصان انه حصانه. باعلان الملك ان الشعب ملكيته الخاصة، فإنما يعبر عن ان المالك الخاص مَلِك.

وكما تجد الفلسفة في البروليتاريا اسلحتها المادية، فإن البروليتاريا تجد في الفلسفة اسلحتها الفكرية، وفتما تنفذ صاعقة الفكر بقوة في اعماق هذه التربة الشعبية الساذجة، حتى يتحقق الانعتاق الذي يحوّل الألمان إلى بشر.

فلنلخص النتيجة:

ان تحرر المانيا الوحيد الممكن **عملياً** هو تحررها انطلاقاً من وجهة نظر النظرية التي تعلن ان الانسان هو الكائن الاسمى للانسان. إن الانعتاق من **العصور الوسطى** في المانيا، غير ممكن إلا إذا كان، في نفس الوقت انعتاقاً من تجاوز الصعوبات الجزئية للعصور الوسطى. لا سبيل في المانيا لتحطيم اي ضرب من ضروب الاستعباد دون تحطيم كل ضروب الاستعباد، إن المانيا التي تذهب الى **اعماق الاشياء**، لا تستطيع ان تصنع الثورة دون ان تقلب الاشياء رأساً على عقب.

إن انعتاق الالماني. هو انعتاق الانسان. رأس هذا الانعتاق الفلسفة وقلبه هو البروليتاريا. ولا تستطيع البروليتاريا ان تتجاوز نفسها إلا إذا حققت الفلسفة. عندما تتوفر جميع الشروط الداخلية، فإن يوم البعث الالماني ستبشر به صيحة الديك الغالي (gallischen ـ الفرنسي).

ملاحظات للمراجع

(١) كان مراد هذه المقالة ان تكون مقدمة لدراسة نقدية موسعة لفلسفة الحقوق عند هيجل، وقد نشر مخطوط هذه الدراسة بالالمانية في برلين ١٩٥٨

(٢) إشارة لفقرة العهد القديم «ثم أرفع يدي فتنظر ورائي. وأما وجهي فلا يرى» (سفر الخروج ٣٣ ـ ٢٣)

(٣) الحقوق في النص كله ترد بمعنى : القانون الوضعي.

(٤) شايلوك : بطل مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير، مرابي يهودي لئيم.

(٥) teutonischen: من التيوتونيين، نسبة القبائل الجرمانية الشمالية القديمة.

(٦) هنا تحديداً، تأتي بمعنى الاقتصاد القومي.

(٧) يتلاعب ماركس بالكلمات باستعمال Listig التي تعني بالالمانية مكر، وتتوافق مع اسم الاقتصادي فريدريك ليست List (١٧٨٩ ـ ١٨٤٦) الذي كان من انصار نظام الحماية الاقتصادية.

(٨) إشارة الى قوانين سبتمبر ١٨٣٥، التي حددت نشاطات وحريات القضاء والصحافة والتي فرضت عقوبات قاسية لكل من يحرّض ضد الملكية الخاصة او امن الدولة، اصدرها الوزير تيار بعد تذرعه بقيام محاولة لاغتيال لويس فيليب.

(٩) المقصود فريدريك وليام الرابع.

(١٠) burgerliche: ترجمة : المدني، المعنى المستعملة به بدقة : المدني ـ البرجوازي.

(١١) إشارة إلى كراس سييس Sieyes (نشر عام ١٧٨٩): ما هي الطبقة الثالثة ؟ كل شيء. ماذا مثلت في النظام السياسي حتى الآن ؟ لا شيء. ماذا تطلب؟ ان تصبح شيئاً ما.

صدر حديثا :

١ ـ صحراء منتصف الليل	خالد المعالي
٢ ـ على ضفاف الجنون	جبار ياسين
٣ ـ كلمات	صالح العيارى
٤ ـ الجنس عند العرب	نصوص مختارة
٥ ـ المرأة في معركة النهضة " بالاشتراك مع السفور "	هيثم منّاع

يصدر قريبا :

٦ ـ اسهام في نقد فلسفة الحقوق عند هيغل " مقدمة "	كارل ماركس
٧ ـ كتاب الطواسين	الحلّاج
٨ ـ من الحاديات العرب والعجم	نصوص مختارة
٩ ـ رمسيس يونان " نصوص"	

منشورات الجمل

1986